المكان في السرد الرسائلي

رسائل محمود درويش وسميح القاسم أنموذجاً

The place in the epistolary narrative

The messages of Mahmoud Darwish and Samih Al-Qasim as a pattem

سجى ابراهيم يونس
د. هشام محمد عبدالله
جامعة الموصل- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

Sajja Ibrahim Yunus
Dr. Hisham Mohammad Abdullah
University of Mosul- College of Education for Human Sciences - Department of Arabic Language

Hisham_phdart@uomosul.edu.iq

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/٩/٥
تاريخ القبول ٢٠٢١/١١/٢

الكلمات المفتاحية: المكان – السرد – محمود درويش- سميح القاسم- الرسائل

Keywords: Place - narration - Mahmoud Darwish - Samih al-Qasim - letters

الملخص

تهدف هذه الدراسة البحث في مفهوم المكان داخل النص السردي الرسائلي على عد النص الرسائلي أحد النصوص السردية التي يكون المكان أحد عناصرها الهامة ، وقد اخترنا كتاب الرسائل لمحمود درويش وسميح القاسم ميداناً للبحث ، لأنّ هذه الرسائل تُعد أرث أدبي لا بد من البحث فيه ، فتحوي هذه الرسائل العديد من الأماكن الواقعية والخيالية التي نحاول كشف جمالياتها ، وكيف تم توظيفها داخل النص الرسائلي ، وكيفية ارتباطها بالعناصر الأخرى للنص.

Abstract

This study aims to research the concept of place within the espistolary narrative text, considering the message text as one of the narrative texts of which place is one of its important elements. We have chosen the book of messages by Mahmoud Darwish and Samih Al-Qasim, afaild to research, The messages are many real and imaginary places that we try to reveal their aesthetics, how they were employed within the message text, and how they relate to other elements of the text .

أولاً : مفهوم المكان

قبل الدخول في مفهوم المكان علينا التفريق بينه وبين مصطلح آخر قريب منه وهو مصطلح الفضاء ، لكي لا يلتبس الأمر علينا ، فهناك الكثير من اصحاب العلم ممن جعلوا المكان في مقام الفضاء وهناك من فرق بينهما ، ومن بين كل تلك الدراسات سنأخذ دراسة الناقد المغربي حميد لحمداني ، الذي يرى أنّ الفضاء أوسع وأشمل من المكان وعدّ المكان جزءاً من الفضاء ، فالمقهى والمنزل والشارع والسجن كلها أمكنة ، فعندما تشمل الرواية كل هذه الأمكنة عندئذ ستشكّل فضاءً للرواية ، فالفضاء مجموعة من الأمكنة التي تقوم عليها الرواية والمكان أحد مكونات الفضاء[١] ، وفي الحقيقة أنّنا نؤيد هذه الدراسة ونراه أكثر اقناعاً ممن يخالفها.

والمكان عند اللغوين تمحور حول جعله بمعنى الموضع وجمعه أماكن وأمكنة [٢] . أمّا في الفلسفة فقد اهتم العلماء والفلاسفة بتوضيح مفهوم المكان ، ومن بينهم أفلاطون الذي " عده حاوياً وقابلاً للشيء "[٣]، والمكان عند ابن سينا هو" السطح الباطن من الجر الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوي ، وعند المتكلمين : الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم ، وينفذ فيه أبعاده ويرادفه الحيز "[٤] ، أمّا عند المحدثين فهو " وسط مثالي غير متداخل الاجزاء ، حاوٍ للأجسام المستقرة فيه ، محيط بكل امتداد متناه [٥] ، هناك الكثير من الدراسات والآراء الفلسفية حول المكان غير أننا اخذنا ابرزها .

وبذلك يمكن أن نعرّفه على أنّه الموطن الذي يبدأ رحلته مع الانسان منذ مراحله الأولى، بل من لحظة تكوينه داخل رحم أمّه إلى نهاية رحلته ونزوله في مكانه الأخير في قبره ذلك المستقر إلى وقت غير معلوم ، وتخلل هذه الرحلة أماكن عدة يمر بها الانسان تشهد على حزنه وفرحه ، عزلته ، يقظته ، نومه ، نجاحه فشله يألفها وتألفه تؤثر فيه ويؤثر فيها ! فتنشأ علاقة ترابط وانسجام بينهما ، إذ " تختلف القيمة التي يضفيها الفرد على الحيز الذي

---

[١] ينظر : بنية النص السردي ، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩١: ٦٣ – ٦٦.

[٢] ينظر : لسان العرب، ابن منظور، المجلد الثالث عشر، دار صادر، د.ط، بيروت، د.ت: ٤١٤.

[٣] نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، حسين مجيد العبيدي، مراجعة وتقديم : عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ط١، بغداد، ١٩٨٧: ١٩.

[٤] المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج١، دار الكتاب اللبناني، د. ط، بيروت، ١٩٨٢، ٤١٢.

[٥] المصدر نفسه: ٤١٢.

يعيش فيه من مجتمع الى آخر، ولكن الظاهرة التي تجمع بين البشر جميعاً هي أن الفرد يدافع عن حيزه وكثيراً ما يمنع الآخرين من الولوج إليه "[١] ، حتى وأن بَعُد الانسان عن مكانه يبقى يستذكره أين ما ذهب " فالبشر يحبون أمكنتهم ويألفوها لأنها ذواتهم وكياناتهم فظلوا متوحدين بها رغم التحولات الكبيرة التي تعرضت لها " [٢]، والانسان يسجل ثقافته وفكره وفنونه وافكاره واسراره وآماله في المكان وكذلك كل شيء متعلق بالماضي يورثه الى المستقبل ، فالمكان هو خلاصة التفاعل بين الانسان ومجتمعه ، فمن خلاله نتعرف على طريقة الحياة التي عاشها الانسان وكيفية التعامل مع طبيعته [٣].

ثانياً : المكان بين الرواية والسيرة الذاتية

تشترك الرواية والسيرة الذاتية في قضية مساحة مهمة هي أنّ كليهما يتوسل السرد والحكاية طريقة لتقديم الحدث ، وهذا ما سوّغ لنا الاتكاء على مقولات الرواية في هذه المساحة وتنزيلها على نص السيرة الذاتية ومنها الرسائل ، إنّ ما يهمنا ويخصنا هو التعرف على المكان الذي يضعه الروائي داخل حكايته وكيفية تفاعل وترابط العناصر الحكائية الأخرى معه لذلك سنفصّل القول فيه . للمكان في النص الروائي أهمية كبيرة لا يمكن اغفالها لأنه يُعد القاعدة والموضع الأساس الذي يحتضن عناصر الحكاية ، " فلا أحداث ولا شخصيات يمكن أن تلعب أدوارها في الفراغ ، ودون مكان " [٤]. ونظراً لأهميته لذا فهو " يمثل الخلفية التي تقع فيها الأحداث " [٥] ، ويرتبط المكان بشكل كبير بالحياة الداخلية للرواية لأنه " بقدر ما فيه من جماعة متفاعلة مع محيطها فإنّه يمثل الحياة خير تمثيل ، ويعبر عنها ، ويدل عليها ، ويجعلها صاخبة في فضائه بشكل أعمق ، وأكثر ثراءً وجمالاً " [٦] ، أي أنّه يجعل من الرواية عالماً مصغراً من العالم الصاخب المليء بالناس والأمكنة .

---

[١] جماليات المكان، مجموعة مؤلفين، عيون المقالات، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٨٨: ٦٠.

[٢] أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، مرشد أحمد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، الإسكندرية، ٢٠٠٣: ٤١.

[٣] ينظر: الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، د . ط، بغداد، ١٩٨٦: ١٦-١٧.

[٤] فضاء النص الروائي، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، محمد عزام، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، سوريا، ١٩٩٦: ١١١.

[٥] بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، مهرجان الأسرة للجميع، مكتبة الأسرة د . ط، مصر، ٢٠٠٤: ١٠٦.

[٦] أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، احمد مرشد: ٣٨.

ولا يُعد المكان " إطاراً تقع فيه الأحداث فحسب ؛ بل هو خشبة المسرح الكلية التي بمجرد أن تنفتح عنها الستارة ؛ ندرك كمشاهدين أننا الآن نتوقع أحداثاً " [١] ، وشيئاً فشيئاً وبتقدم وتطور فن الرواية وتقناتها ، تطور مفهوم المكان ، فلم يعد يقتصر على أنّه ديكور تزييني للرواية بل تعدى هذا المفهوم الكلاسيكي فأصبح عنصراً مسيطراً في العمل الحكائي يمتلك رمزية خاصة به ، وكذلك أصبح " تقنية مستقبلية يتجاوز المبدع بها ومن خلالها مكانه وواقعه " [٢]، لأنه بالفعل " عنصر فعّال في البناء القصصي وليس زائداً ، ويتخذ أشكالاً تحتوي مضامين عديدة من خلال انعكاسه على عناصر العمل القصصي الأخرى " [٣]، فهو الذي يحتوي تلك العناصر وهو المساحة التي تجري فيها الأحداث وتعطي كل شخصية دورها ومكانتها كما أنّه يمثل المساحة التي بين القارئ والعالم القصصي ، ولها دور بارز في تشكيل النص الروائي الذي هو رحلة خيالية عبر الزمان والمكان تصنعها الكلمات .[٤] فالمكان يعمل مع العناصر الأخرى لتكوين هذا النص الإبداعي فهو لا يقل أهمية عن الزمان وعن الشخصية ، وإنما يتضافر مع العناصر السردية الأخرى ليقدم لنا نصاً سردياً متكاملاً .

تقدم الرواية أماكن خيالية عديدة تتخللها الأحداث وتتحرك فيها الشخصيات ، ويقدم لنا السارد المكان بأشكال متعددة ومتنوعة توحي مرةً بالواقعية ومرات توهم بالواقعية ولسنا في صدد تفضيل شكلٍ على آخر ، وإنما الذي يعنينا هو قدرة السارد على اقناع المتلقي بإمكانية الواقع المتخيل ، وهذا يعتمد على ذكائه وقدرته الإبداعية ، فضلاً على أنّ هناك روايات واقعية التي تقدم بالفعل مكاناً حقيقياً على أرض الواقع .

فالرواية هي مغامرة في مكان غير الذي يكون فيه الكاتب عندما يكون غير راغب بمكانه الحقيقي يصنع مكاناً خيالياً مستحضراً ومضافاً الى المكان الحقيقي [٥] . فالمكان يُبنى " على أساس من التخييل المحض ، ولكنه يكتسب أهميته بل وديمومته إذا لم يتماثل بدرجة

---

[١] تقنيات السرد الروائي، محتوى الشكل وأنماط الراوي في ثلاثية عبد الرحمن منيف، أرض السواد، خضر محجز: ٢٠٤.

[٢] الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري، تموز للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ٢٠١٣ : ٢٠٤.

[٣] جماليات المكان في قصص سعيد حورانيه، محبوبة محمدي محمد آبادي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١١: ٣١.

[٤] ينظر : بناء الرواية في ثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا قاسم: ١٠٣.

[٥] ينظر : بحوث في الرواية الجديدة، ميشيل بوتور، تر :فريد أنطونيوس، سلسلة كتاب الدوحة، د . ط، قطر، ٢٠١٩: ٤٧ .

أو بأخرى مع العالم الحقيقي خارج النص "[١] . وإنّ الذي يحصل في السيرة الذاتية عكس هذا تماماً فالمكان فيها " يحاول إعادة خلق المكان الواقعي بالكلمات ، بعد أن يضفي عليه المؤلف شيئاً من احساسه به "[٢] . فالأماكن في السيرة تكون حقيقية معاشة على أرض الواقع ولكن هذا لا يمنع من إضفاء شيئاً من الخيال على بعض هذه الأمكنة فحتى وإن كان " الكاتب غير محتاج الى قوة كبيرة من الخيال الخالق، فإنه لا يستطيع الاستغناء عن الاطلاع الواسع ؛ فكل رواية ، وأحياناً كل كلمة ، لها قيمتها في إنماء تصوره ، وفي تجلية السيرة التي يريد أن يكتبها " [٣]. ينقل الكاتب السير ذاتي تجاربه وما مر به طول تلك السنين من خلال تجوله في الأمكنة الي عاشها كل مراحل حياته وكذلك تنقلاته من مكان لآخر، وبالتأكيد مع الأهل والأصدقاء والمقربين ليشاركنا عالمه الخاص واطاره المكاني بصورة فنية تعطينا إدراكاً واحساساً حقيقياً بحياته ، "حيث يلعب المكان دوراً هاماً ومحورياً في تكوين مرجعيات الذات التي تحكي تجربتها ، أضافةً الى دوره في جعل أحداث النص ومواقفه ووقائعه ممكنة الحدوث ، وتشي بواقعيته وقربه من المعقول "[٤] ، كما أنّ له دور آخر مهم فهو يساعد " في تشكيل السيرة الذاتية بوصفها فناً سردياً ينهض على استيلاد مكان معين ومحدد له مرجعية واقعية معروفة ، لكنه في الوقت نفسه ينفتح على مجال تخييلي مقيد تتأنسن فيه الكثير من صفاته وخصائصه وأجوائه ، وتأخذ بعداً بشرياً بمعية الشخصية / الشخصيات التي تتحرى – عبره ومن خلاله وبوساطته – الكشف عن تشكيل سيرتها على نحو أو آخر " [٥]. إذن كاتب السيرة وإن كان يقدم مكاناً واقعياً ، إلا إنّه في الوقت ذاته يقدمه بطريقته هو من خلال ما يحسه تجاه وطريقة تفاعله معه التي بالتأكيد تختلف من شخص لآخر .

والسيرة الذاتية الرسائلية هي الحاضنة لتلك الأمكنة التي يسردها الكاتب لنا فمن خلال هذه الرسائل نتعرف على ذاته وكيف عاش حياته وأماكنه السابقة ، وربطها بحياته الحالية واندماجه مع مكانه وقيمة الأمكنة التي مر بها عنده .

---

[١] الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري: ٢٠٥.

[٢] السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان، جبرا ابراهيم جبرا، احسان عباس نموذجاً، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٢: ١٣٦.

[٣] فن السيرة، احسان عباس، دار صادر، ط١ بيروت، ١٩٩٦: ٧٨.

[٤] المكان في السيرة الذاتية، دراسة وعمر منيب أدلبي، جريدة الأسبوع الأدبي، ع ١١٢، ٢٠٠٨ G – geography . blogspot. com.

[٥] التشكيل السير ذاتي الرسائلي، محمد صابر عبيد، دار نينوى للدراسات والنشر، د . ط، دمشق، ٢٠١٢: ٩٧.

ودرويش وسميح يصوران تلك الأمكنة بأبهى صورة من خلال استرجاعهما للمكان الذي كان ولا يزال مغموراً في الذاكرة تكاد لا تنفك منه يحنان الى بعضٍ منها ويمقتان البعض الآخر، وكثيراً ما يرسمان في الخيال تلك الأمكنة على أنهما حاضرة عبر سردية جمالية واضحة المعالم والدلالات ، فالمكان عندهما له قيمة كبيرة كما قال عنه حسن بحراوي إنّه : " ليس زائداً في الرواية ، فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معاني عديدة ، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان ، هو الهدف من وجود العمل كله " [١] ، يقول درويش مخاطباً صديق عمره سميح في الرسالة الأولى : "خذني إلى هناك إذا كان لي متسع في السراب المتحجر ، خذني مضائق رائحة أشمها على الشاشة وعلى الورق وعلى الهاتف . وإذا تعذر ذلك فليسمع منك كل الحصى والعشب والنوافذ اعتذاري الجارح "[٢]. أراد درويش بهذا المقطع الرسائلي أن يبين المغزى من تبادلهما الرسائل وهو رغبته في أن يذكّره صديقه وأن يأخذه عبر الكلمات في رحلة الى الماضي الى مكان (الميلاد ، الطفولة ، الشباب) ، إلى موطنه الأم فلسطين الذي اشتاق إليه كثيراً ، بسبب الحرمان الذي عانى منه الشعب الفلسطيني أثر عمليات التهجير القسري والاحتلال ، فأبناؤه يعيشون غربتين غربة داخلية تتمثل بالإحساس بعدم الانتماء إلى المكان المستباح ، وعدم الشعور بأدنى حرية يمكن أن يمارسها الفرد فهو متقيّد روحاً ونفساً ثم مكاناً وهي ما نطلق عليها الغربة النفسية ، أمّا الغربة الثانية فهي غربة مكانية شتت الإنسان وفرّقته عن مكانه الأصل واقتلعته من جذوره ، فأصبحت غربة مزدوجة ومركبة نفساً وواقعاً ، وهذا بالضبط ما عان منه سميح الذي بقيّ داخل الوطن ودرويش الذي اغترب عن الوطن ، ولذلك لن يكون المكان عندهما مجرداً من الإحساس ، بل سيكون مكللاً بالعاطفة يحمل دلالات ومعاني كثيرة فنظراً لأهمية المكان عندهما يقول درويش : "ومنذ تلك الأيام ونحن نُسمي المكان بالشغف إياه الذي نُسمي به الكائن ، نسمي القرى والمدن والنبات والطير كما نُسمي أولادنا وآباؤنا "[٣] ، نرى أن درويشاً جعل من المكان كائن حي لشدة تعلقه به وماثله بالكائنات الحية ، وفي نص آخر يقول درويش : "ستكتب إليّ ، سأكتب إليك ...لأعود . فمازال في وسع الكلمات أن تحمل صاحبها وأن تعيد حاملها المحمول عليها إلى داره "[٤] ، فدرويش وإن كان لا يستطيع العودة إلى مكان جذوره واقعياً، لكنه يأمل بالعودة عن طريق الكلمات التي ستوصله الى أين يريد دون أي قيود تُفرض عليه ، فالكاتب أو الروائي أو الشاعر الفلسطيني

---

[١] بنية الشكل الروائي ،(الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠: ٣٣.

[٢] الرسائل، محمود درويش وسميح القاسم، دار العودة، د. ط، بيروت،١٩٩٠: ٣٦.

[٣] المصدر نفسه :١٢٦.

[٤] المصدر نفسه :٣٨.

يحاول دائماً أن " يسجل حقه في وطنه ، وعلاقته به المستمرة به ، سواء كان يعيش فيه ، أو كان منفياً عنه "[١] ، فيبقى المكان في ذاكرته وفي كتاباته كما هو على الرغم من محاولات المحتل لطمسه .

ثالثاً : علاقة المكان مع عناصر العمل القصصي

سنأخذ المكان من خلال علاقته مع العناصر الحكائية وتأثيرها على بعض إذ " تعد ثنائية التأثير والتأثر العماد الأساس في كل عمل ابداعي ، وعلى مختلف أصعدة الحياة ، فعبر هذه الثنائية تتجسد القيم الفنية " [٢] ، فمن خلال هذه الثنائية نستطيع أن نجد للمكان في الرسائل عدد من العلاقات مثل :

أ – المكان والزمان :

يرتبط المكان بالزمان في العمل القصصي ومن هذه العلاقة " يشيد الراوي عمله الروائي ، فهما متلازمان ومنفتحان على الوجود وهذا ما يجعل الرواية الحديثة مشرعة الأبواب"[٣] ، إذ تكون منفتحة على كل الاحتمالات والأزمنة والأمكنة وإذا ما قارنا بين الزمان والمكان في الرواية نجد ادوارهما مختلفة على الرغم من أنّهما متصاحبين في العمل القصصي " فالزمن يمثل الخط الذي تسير فيه الأحداث والمكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه ..وهناك اختلاف بين طريقة ادراك الزمن وطريقة ادراك المكان . حيث أنّ الزمن يرتبط بالإدراك النفسي أمّا المكان فيرتبط بالإدراك الحسي "[٤]. ومعنى أنه ادراك حسي أي أننا نستطيع " أن نعاينه ونتثبت منه بينما الزمن مقولة تجريدية خادعة ومضللة وأننا لا نستطيع أن نلمسه ونراه"[٥]. والرسائل السير ذاتية خير مثال يضرب على ارتباط هذين العنصرين ، ففي كل رسالة حرص الكاتبان على توثيق الزمان والمكان الذي كُتِبت فيه الرسالة . مثل " ولكن أين قبري يا صديقي ؟ أين قبري يا أخي ؟ أين قبري ؟... أخوك محمود درويش

---

[١] الريف في الرواية العربية، محمد حسن عبدالله، عالم المعرفة، د . ط، ١٩٨٩: ٢٠٠.

[٢] التشكيل المكاني، ودوره في التكوين الدلالي عند الجواهري، علي عزيز صالح، مجلة كلية التربية الأساسية، ع ٩٩، مجلد ٢٣،٢٠١٧: ٦٩٥.

[٣] جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا، أسماء عبد القادر، رسالة ماجستير، اشراف: ابراهيم السعافين، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، نيسان، ٢٠٠٠: ١٧.

[٤] المصدر نفسه :١٠٦.

[٥] لحظة الأبدية ،دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٠: ٥٦.

باريس -١٩٨٦/٥/١٩ "[١] وحتى أي نوع من أنواع الرسائل الأخرى يحرص كاتبوها على كتابة الزمان والمكان نظراً لأهمية ارتباطهما معاً ، وكذلك لأنّ النص الرسائلي يُعد لحظة توثيق تاريخي والتاريخ يُحدد زماناً ومكاناً ، كما أنّ النص الرسائلي يربط بينهما لأنّه بمثابة علامات استهداء تضع الحدث ضمن سياقه التاريخي ، ومعلوم أنّ الحدث إن فُصِل عن سياقه التاريخي فإنّه لن يُوصل الحقيقة إلى القارئ ، أو قد يكون هذا الفصل سبباً في تقديم فكرة مغايرة أو فهم ملابساتِ حدثٍ على غير ما كان عليه في حقيقته عندما تضعه في سياقه الزماني والمكاني معاً ، وهناك العديد من النصوص داخل الرسائل يوثق الكاتب الزمان والمكان فيها يستذكر سميح " وإنك لتذكر معي رحلتنا تلك بصبحة راشد حسين إلى قرية المكر الجليلة ذات يوم من صيف ١٩٥٨ ، كنا مدعوين إلى مهرجان شعري في ساحة القرية "[٢] ، لعل سميح أراد بذكر الزمان والمكان أن يحرك ذاكرة درويش لتذكر ذلك اليوم ، ليأخذه إلى ذلك التاريخ وذلك المكان . يقول سميح : " تذكرني في رسالتك الأخيرة بما كنتُ اؤثر أن أنساه ، يتلك الحملة القذرة التي شنتها علينا عناصر مشبوهة في العام ١٩٦٨ ، يوم خرجنا إلى صوفيا مفعمين بشهوة العناق فعدنا وفي ظهرنا سكين الشائعة الدامية "[٣] ، لا يريد سميح أن يذكر تلك الشائعة ، ومع ذلك ذكرها بالزمان والمكان ، فلماذا ؟ ، لأنه يعلم بأنّ هناك جمهور كبير يقرأ رسالته ؛ لذلك وضّحها بالزمان والمكان لمن لا يعرفها . لذا نرى أنّ الزمان والمكان متلازمان لسير حركة النص السردي .

ب - المكان والحدث

لا تُقدم الأحداث في السرد الرسائلي لوحدها ، وإنما تُسرد مع عناصر حكائية أخرى ، والمكان هو أحد هذه العناصر التي ارتبطت بالحدث إذ إنّ ارتباطها بالحدث ألزامي ، فالحدث يقدم بمعية الزمان والمكان ، فإذا كان الحدث هو الذي يعمل على تماسك وانسجام الحكاية فإنّ المكان هو البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي [٤] ، والمكان " جزء من الحدث وخاضع خضوعاً كلياً له ، فهو وسيلة لا غاية تشكيلية . ولكنها فاعلة في الحدث ، وسيلة محتوية على تاريخية الحدث" [٥] ، وبموجبه يكتسب الحدث أهميته ، فهو الأرضية التي تنمو عليها الأحداث وتتشابك لتصل إلى ذروتها ، والعكس صحيح فقد يكتسب المكان قيمته وشهرته عند وقوع الحدث فيه كما حصل في قرية " كفر قاسم" حيث يسرد درويش هذه القصة

---

[١] الرسائل: ٣٨.

[٢] المصدر نفسه :١٣٠.

[٣] المصدر نفسه :١٠٣.

[٤] ينظر : بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي: ٢٩.

[٥] الرواية والمكان، ياسين النصير: ١٨.

في رسالته "احصدوهم" ،" روى أحد الناجين من مجزرة كفر قاسم ، قصته لملحق صحيفة "هآرتس" :قال أنه يخلع ساقه كل ليلة ويمددها تحت السرير، وفي كل ليلة تسأله طفلته البالغة السابعة من العمر : ما هذا يا أبي ؟ فيقول لها: عندما تكبرين يا ريم ستعرفين ، ستعرف ريم ما يلي : في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر التاسع والعشرين من اكتوبر ١٩٥٦ ، فرض أمر منع التجول على قرى المثلث الفلسطيني ، كانت حرب سيناء قد اندلعت منذ دقيقة واحدة فقط ، كان أبوها اسماعيل بدر عائداً من العمل الى قريته . أوقف "حرس الحدود" عربته إلى جانب ، هو وثلاثة عمال ، سألهم الجندي : من اين أنتم ؟ قالوا : من كفر قاسم . تراجع الجندي وصاح : احصدوهم !!! "[١] ، ففي هذا النص الرسائلي المقتطع يحكي درويش عن مجزرة كفر قاسم التي اشتهرت قصتها آنذاك ولا زالت عالقة في أذهان الكثيرين فكفر قاسم كانت قرية عادية غير معروفة ولكن بفعل الحدث الذي وقع فيها بات الكل يعرفها ولكن عندما يرد ذكر كفر قاسم فإن أول ما يتبادر الى أذهاننا هو حدث المجزرة ، وليس المكان عندئذ نستطيع القول بأنّ المكان قد اكتسب شهرته من الحدث الذي وقع فيه ، وهذا الحال ينطبق على مجازر(دير ياسين ، صبرا ، شاتيلا) التي ورد ذكرها في الرسائل ، فعندما تذكر هذه الأسماء يفهم الجميع أنها مجازر وليست مجرد أماكن ، فقد تماهى المكان فيها حتى باتت أسمائها تُعد مجازر وليس أماكن .

ج – المكان والشخصية

تلعب الشخصيات دورها داخل العمل الحكائي ولا بد ولها من مكان تستقر فيه ، أو تتنقل فيه ، فكثيراً من هذه الشخصيات تعطي احساسها وانطباعها عن المكان وتتأثر فيه ويؤثر فيها حسب تفكيرها هي فتجعله موضع قلق مرة وموضع حزن أو فرح مرة أخرى ...[٢]

وكما ذكرنا كثيراً عن أهمية المكان بالنسبة للعناصر الأخرى ، فالشخصية هي التي تتحرك بالمكان وتشغله " فالمكان لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له " [٣]. وتؤثر نفسية الشخصية وحالتها في المكان فقد تراه ضيقاً مظلماً في حين أنّه واسع مضيء في الحقيقة فلها الحرية المطلقة في نظرتها له . " وتأثير المكان على نفسية الشخصيات غالباً ما يكون أعمق من التأثير على الجسد وذلك لما تمتاز به النفس الإنسانية من أحساس مرهف ، فأكثر الأمور بساطة تطبع في النفس علاقة يصعب محوها حتى مع مرور الزمن " [٤]. وكانت ثنائية

---

[١] الرسائل: ١١٩.

[٢] ينظر : جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، مهدي عبيدي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١١: ١٨٦.

[٣] بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي: ٢٩.

[٤] جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا، أسماء عبد القادر: ٨١ .

التأثير والتأثر بالمكان واضحة على أحدى الشخصيات المهمة التي سرد عنها درويش في أكثر من رسالة ، وهي شخصية "راشد حسين" صديقهما المشترك يقول درويش : " ثم عاد إلى نيويورك ليبحث عن نفس لن يجدها....لم يجد ما يشغل به منفاه ، ولم يكن الحنين مهنة كافية، ولا شعر عربياً في نيويورك الفاتحة معدتها لابتلاع الأمم والثقافات ، لماذا لا تعود ؟ أسأله ، فيقول بصوت يتلاشى إلى البعيد البعيد ، بصوت فاتح الغموض : ليتني أعود ولكني تورطت في المنفى .. تورطت إلى درجة أسأل معها نفسي : ماذا سأفعل هناك .. واذا سأفعل ؟ "[١] فالشخصية هنا تضفي احساسها على المكان فيقول هي مدينة وحدة وعزلة ومبتلعة للثقافات على الرغم من أنه المعروف عن مدينة "نيويورك" أنها مدينة مجتمعية ومكان التقاء الثقافات فهي مدينة صاخبة بأناسها وعمرانها إلا إنّ الاحساس بالغربة والوحدة كان طاغياً على راشد حسين وهو بعيد عن موطنه الذي ما يزال في ذاكرته ولا يريد أن يخرجه منها .

وفي نص آخر يقول درويش : " كان انقاذه ممكناً ، لو وجد من يؤنس وحشة روحه في مدينة وحشية "[٢] ، فبعد أن سرد درويش كلام راشد حسين عن "نيويورك" يعود هو ليصفها بالمدينة الوحشية لأنها كانت سبباً في حزن وضياع صديقه.

ويضيف درويش " لم يهاجر ، لم يخرج من مصمص ، لم يطور لغته ، أراد أن يبقى كما هو " [٣]، فالشخصية ترفض أن تتعايش مع واقعها الجديد ومكانها الجديد وتجده سيئاً في كل الأحوال ، ربما لأنّ اتساع مدينة (نيويورك) زاد من وحشتها مقارنةً مع قريته الصغيرة (مُصْمُصْ) التي قد يكون حافظاً لكل شبرٍ فيها .

وكثيراً ما تكون الشخصية تائهة لا تعرف هي أين وهذا درويش يصف ضياعه " المكان ، المكان ، أريد أي مكان في مكان المكان لأعود إلى ذاتي " [٤] ، فهذا دليل على أنه ضائع في غربته ويريد أن يستقر ويجد ذاته ، فالمكان هو استقرار الذات وهو الذي " يوصل الإحساس بمغزى الحياة ويضاعف التأكيد على تواصلها وامتدادها "[٥] ، وعلى الرغم من وجود المهرجانات ووسائل التواصل التي يتواصل بها درويش مع احبته وابناء جلدته من الفلسطينيين والعرب يبقى تائهاً فاقداً لذاته لبعده عن الأرض التي شهدت صرخته الأولى .

---

[١] الرسائل: ٨٢.

[٢] المصدر نفسه :٨٢.

[٣] المصدر نفسه: ٨٢.

[٤] المصدر نفسه :٣٧.

[٥] الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري: ٢٠٥.

رابعاً: الثنائيات الضدية

بعد تحديد مفهوم المكان وعلاقته مع بعض العناصر الحكائية ، سنحاول دراسة الثنائيات الضدية المكانية التي تظهر حال تماس الشخصية بما حولها من الأمكنة ، والنص الرسائلي ليس غريباً عن هذه الثنائية إذ إنّ عنصري النص الشخصية / المكان كلاهما يشكلان عنصريين مهمين حاضرين في كلّ سردٍ سواءً أكان سرداً خالصاً أو كان سرداً رسائلياً، وأولى هذه الثنائيات هي ثنائية الانغلاق والانفتاح التي سنحاول الإحاطة بها في الرسائل .

١- **المغلق / المفتوح** : وقد احتوت الرسائل على العديد من الأماكن المغلقة والمفتوحة حالها حال أي نص سردي ، فالمكان حيز يشتمل على الأحداث والشخصيات واقعياً فإن المكان يتوزع على نوعين ، المكان المفتوح والمكان المغلق ، وهو ما سنلمس صداه في النص السردي الذي سنتناوله وسنحاول التعريف بهذين النوعين قبل البحث عنهما في ثنايا النص الذي ندرسه .

أ. **المكان المغلق** : قبل معرفة دور الأمكنة ودلالاتها في النصوص السردية علينا معرفة ما هذا المكان المغلق ، فهو " المكان الذي حُددت مساحته ومكوناته كمكان العيش والسكن الذي يأوي إليه الإنسان ، ويبقى فيه فترات طويلة من الزمن سواء بإرادته ، أو بإرادة الآخرين ، لذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية ، الذي قد يكشف عن الألفة والأمان ، أو قد يكون مصدراً للخوف والذعر "[١] ، أمّا بالنسبة لدور الأمكنة المغلقة في النصوص السردية فهي " تلعب دوراً حيوياً على مستوى الفهم والتفسير والقراءة النقدية ، وتسعى إلى عرض العلاقة اللصيقة بينها وبين شخصياتها القصصية من جهة والمجتمع وحياة الشخصيات الاجتماعية والثقافية والسياسية من جهة أخرى " [٢]، اذن المكان المغلق هو محدد المساحة تحيطه الجدران وللمكان المغلق سلبياته وإيجابياته فأحياناً يولد الاحساس بالوحدة والعزلة وأحياناً أخرى يوحي بالدفء والأمان ، واحتوت رسائل درويش وسميح عدداً من الأمكنة المغلقة ، وهو أمر طبيعي بل حتمي لا يمكن للنص أن يتجاوزه أو يهمله :

- **جريدة الاتحاد :**

بناية الجريدة بصورة عامة هي مكان لعمل الكُتّاب والصحفيين والمثقفين ، وجريدة الاتحاد بصورة خاصة كانت مكاناً لعمل كل من سميح ودرويش في فلسطين ، وفيها تشكّلت علاقات صداقة وطيدة بين العاملين فيها، فيستذكر سميح " نحن الآن ، يا محمود معاً ،

---

[١] صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج، جوادي هنية، اشراف : صالح مفقود، اطروحة الدكتور، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، ٢٠١٣: ١٧٨.

[٢] جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، محبوبة محمدي محمد آبادي: ٥٦.

تحت سقف "الاتحاد" واميل توما. ولأننا نسهر الليل اكثره والنهار أقله ، فلم يكن بد من قدومنا الى العمل . متأخرين لنجد أستاذنا وصديقنا أميل توما وقد فرغ من كتابة الافتتاحية على الأقل "[١] . وايضاً يقول : " أخي محمود ، لو أعلم فقط ، لو أعلم من أين هذا الثلج كله ... نديف هائل عبر النافذة ، أسأل صحفيا شاباً في جريدة "الاتحاد" التي عدنا إليها كما يعود العاشق الى حبه الأول أو كما يعود المجرم الى مكان جريمته ، بلغة دوستويفسكي "[٢] . في الحقيقة هناك العديد من القصص التي سردها سميح ودرويش في هذا المكان فهو مكان عملهما في الماضي وعاد سميح للعمل فيه مرةً اخرى ، فكان المرح يسود هذا المكان وتحت سقفه نشأت صداقة حقيقية ، فكان مثالاً للمكان الآمن وللراحة النفسية ، وليس هذا فحسب يقول درويش : " أميل توما أيضاً يموت ، أذن من لا يموت ! عملت معه عشر سنين في جريدة "الإتحاد" ، ومنذ البداية قال لي : هل أنت متأكد من أنّك ستمضي على هذا الطريق ؟ قلت – وأنا في العشرين : معك ، ومع أميل حبيبي وتوفيق طوبي سأمضي في هذا الطريق إلى النهاية ..."[٣] ، فكانت جريدة "الاتحاد" بمثابة انطلاقة درويش نحو الكتابة ، فقد دخل مبناها وهو في العشرين من عمره لكي يتتلمذ على يد أميل حبيبي ، فكما رأينا كان لهذا المكان تأثيراً ايجابياً كبيراً على درويش وسميح من حيث الالتقاء فيه بالأصدقاء ومن حيث تكوين محصلة ثقافية لكل من يعمل فيه ، وليس هذا فحسب فقد كانت جريدة الاتحاد محل ثقة ومنبراً للمعتقلين ، حيث يذكر سميح " وعبر الجدران والأسلاك الشائكة في معتقل (أنصار – ٣) الرهيب في صحراء النقب اللاهبة ، تسللت إلى جريدة (الاتحاد) رسالة من اخوتنا الشعراء والكُتّاب المعتقلين هناك ، هي أشبه ما تكون برسالة استغاثة التي تبثها إلى جهات الكون المعتم سفينة الجسد الموشكة على الهلاك "[٤] ، فوضع المعتقلين آمالهم فيمن يكتب بهذه الجريدة لكي يوصلون معاناتهم وما يتعرضون له من تعذيب إلى العالم أجمع .

- **المكتب**

هو مكان العمل الذي يقضي الإنسان فيه وقتاً لا بأس به ، وسميح تنقّل في عدة مكاتب أثناء تغيير عمله في كل مرة ، فوصف أحد هذه المكاتب " وها أنذا الآن ، أتابع مخاطبتك الصماء في مكتبي الحيفاوي الصغير ... على الجدار المقابل صورة كبيرة لصديقنا

---

[١] الرسائل: ٦٠.

[٢] المصدر نفسه :٨٥.

[٣] المصدر نفسه :٥٤.

[٤] المصدر نفسه: ١٩٩.

دراكولا " فلاد تسيبش " ذلك المناضل الروماني من القرن الخامس عشر"[١] ، وبعد ذلك يقتطع وصفه للمكتب لينتقل وينشغل بوصف شخصية ال (دراكولا) المعروفة مستغلاً إياها للوصول إلى حقيقة واقعية وهي تزييف التاريخ من خلال تشويه صورة المناضلين من أجل الحرية كما حصل مع شخصية ال(دراكولا) ، ويعود في الرسالة ذاتها ليكمل وصف المكتب بعد أنّ عرّف شخصية الدراكولا : " وعلى الجدار المقابل ، أيضاً ، لوحات الفنان البريطاني رالف ستيدمان المتفاعلة بصدق ملموس مع قصيدتك وقصيدة أخينا أدونيس وقصيدتي "[٢] ، جاء ذكر المكتب هنا بشيء من الدقة ولكن الوصف اقتصر على الجدران فقط ولم يصف اجزاء المكتب الأخرى .

- **القبر**

هو المكان الذي تنتهي فيه حياة الإنسان ، فبمجرد أن يوضع الإنسان فيه ينتقل إلى عالمٍ آخر عالم مجهول غير عالمه الذي عاشه ، فهو" النتيجة الحتمية التي يؤول إليها الإنسان بعد حياة طويلة مليئة بالأعباء والصعاب ، وهو شاهد العبرة والاتعاظ الطبيعي الذي لا يحتاج إلى كلام ، لأننا وبمجرد النظر إليه نتمثل أُناساً كانوا يعيشون معنا ويرافقوننا في حياتنا ، وأنهم غادرونا لحياة أخرى تاركين لنا ذكرياتهم واهليهم وما يذكّرنا بهم "[٣] ، وعادةً ما يمثل القبر مكاناً معادياً للإنسان ، وكثيرٌ من الناس لا يريدون سماع شيئاً عنه ، عكس درويش الذي نرى أنّه قد ذكر القبر عدة مرات وتساءل عن موقعه ، فمنذ الرسالة الأولى حين قال : " ست عشرة سنة تكفي لأصرخ : بدي أعود ، بدي أعود ، كافية لأتلاشى في الأغنية حتى النصر أو القبر... ولكن ، أين قبري يا صديقي ؟ أين قبري يا أخي ؟ أين قبري ؟..."[٤] ، فمن شدة حزنه لأنه بعيد عن بلده يسأل صديقه سميح عن موقع مثواه الأخير، ولكن في الحقيقة هو لا يبحث عن القبر بحد ذاته ولكنه يخشى أن يُدفن في مكانٍ غير الذي ولد فيه ، يخشى أن يواري الثرى بعيداً عن أرضه و وطنه الذي ولد فيه ، فبنظره أنّ تراب وطنه هو احق باحتضانه من تراب المنفى ، وما كان من سميح إلا أن يجيب على تساؤل صديقه فيقول له : " أخيراً لا تسألني أين قبرك ، مادام المهد قضية معلّقة فسيظل القبر سؤالاً محرجاً يتيم الإجابة "[٥] ، نرى القبر في هذين النصيين من الرسائل قد أعطى دلالةً واضحةً

---

[١] الرسائل :١٩٨.

[٢] المصدر نفسه :١٩٩.

[٣] المكان في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويد محمد ساير الطربولي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٥: ١٠١.

[٤] الرسائل: ٣٨.

[٥] المصدر نفسه: ٤٢.

عن نية كل من درويش وسميح لبداية طرحهما عن القضية الفلسطينية العالقة ليومنا هذا باستخدام القبر ، فسميح ينهى درويش عن سؤاله عن مكان قبره لأنّ مكان مهده (فلسطين) لا يزال أمره عالقاً غير محسوماً ، مادام الغريب يسرح ويمرح في هذه الأرض ، فنرى أنهما يلوّحان عن هذه القضية منذ الرسالة الأولى فوصية درويش هي : " هناك ولدت ..هناك ولدت ، وهناك أُريد أن أُدفن ، ولتكن تلك وصيتي الوحيدة ! "[١] ، جل ما يتمناه درويش أن يدفن في أرضه فقط هذه هي وصيته الوحيدة ، وفي مرةٍ أخرى يذكر درويش القبر ولكن بصيغة الجمع " لا أتمنى أن أكون معك هذه المرة ، على مقبرةٍ بلغت من العمر ثلاثين عاماً، طالت نباتات الشوك وكبرت أشجار النخيل ، واشتعلت زهرة الخبيزة ثلاثين مرة ، للمقابر أيضاً عمر وتاريخ ... وأزهار "[٢] ، لأول مرة لا يتمنى درويش أن يكون مع صديقه في أحدى المناسبات لأنها مناسبة وذكرى أليمة وهي "مجزرة كفر قاسم" التي يحيها الشعراء كل عام ، فنراه يصف هذه المقبرة بأنّ الشجر قد نبت وكبر عليها ، وأنّ زهرة الخبيزة قد نبتت ثلاثين مرة إشارةً منه لعمر هذه المقبرة ، فهي شاهدة على الظلم وعدالة لم تتحقق منذ ثلاثين عام . ويذكر كل من سميح ودرويش القبر في قصائدهما فيقول درويش في قصيدة (أسمّيك نرجسة حول قلبي) :

"أما آن للفارس المُرِّ أن يتوسّد ظلاً وأن يشتري قبرهُ قبل أن ينفدَ القفر . ماذا دهانا"[٣]

نرى أنّ القبر عند درويش شعراً لم تتغير دلالاته عن ما كان في النثر ، فبقيّ ذلك الشعور بالخوف والقلق خشية أن يموت ويدفن في أرض الغربة بعيداً عن تراب الوطن ، ولكنه هذه المرة يخاف من نفاذ المقابر إشارةً منه على كثرة القتل الذي يتعرض له أبناء وطنه من قِبل المحتل ، وسميح يقول :

" صاحبي !

لم نكن شعراء المقابر يا صاحبي

هكذا ينبغي أن نموت "[٤]

ب. المكان المفتوح :هو ذلك المكان الذي لا يحده شيء، المترامي الأطراف ولا تحيطه أسوار ولا جدران ، فهو منفتح على العالم الخارجي وهذا الانفتاح يولد الراحة النفسية ، وتكون الأمكنة المفتوحة " متاحة لجميع الشخصيات القصصية ولا تحدّها حواجز وتسمح للشخصية

---

[١] الرسائل :٤٥.

[٢] المصدر نفسه :١١٧.

[٣] المصدر نفسه :٢٩.

[٤] المصدر نفسه :١٥٤.

بالتطور والحرية "[١] ومن هذه الأماكن المفتوحة ، وهناك أماكن مفتوحة كثيرة في الرسائل ولكننا سنورد أبرزها واكثفها حضوراً :

- **المدينة**

كان الشاعر العربي القديم يتذكر الديار ويحن إليها ويصفها في أشعاره لأنّه اعتاد على الترحال من مكان لآخر لذلك كان الشعراء يفتتحون قصائدهم بالوقوف على الطلل حتى عُدت ظاهرة ميزت الشعر الجاهلي عن غيره ، وكذلك الحال بالنسبة للعصور التي تلت العصر الجاهلي ولكن تطور ظاهرة ذكر المدن وبشكل غير مألوف عند شعراء العصرين العباسي والأندلسي ، فقد ازداد وتضاعف اهتمامهم بالأمكنة ، كيف لا وهم يرون هاتين الحضارتين المتطورتين أيما تطور ، فكانت المدن تتزين بالقصور والقباب والحدائق ، فقد أثرت ظاهرة العمران كثيراً على أشعارهم ، فكانت الأمكنة تمثل جزءاً هاماً من حياتهم ، كالخمارات (أبي نؤاس) ، الطبيعة والقصور والحدائق ، ومجالس الأنس والطرب (ابن خفاجة وابن زيدون)، ومراتع الصبا والطفولة (الشريف الرضي) ، وأيضاً هناك كم هائل من مرثيات المدن بعد ان خسرها العرب [٢]، وفي القرن العشرين تطورت المدينة بشكل رهيب وبدأت تأخذ لها مكانة خاصة في الأدب بالعموم الشعري والنثري ، فموضوع المدينة في الأدب العربي كان" فكرة شديدة المعاصرة ، ترتبط بالقرن ومنجزاته " [٣] ، وتختلف المدن في كل البلدان من حيث المساحة وعدد السكان والطريقة التي يعيشها ساكنوها ، وبالتالي هذا كله يؤثر على من سيقنط فيها ، ولأهمية المدن ودورها في الروايات والقصص وخاصةً الروايات الواقعية التي تقترب من الحقيقة كان لا بد لنا من معرفة مدى تأثيرها في عالم السرد القصصي والروايات ودلالاتها ، لذا اخذنا دراستها في الرسائل حيث أخذت المدينة مكانة هامة عند الكاتبين بل واستحوذ ذكرها على مساحة واسعة من الرسائل وذلك لكثرة تنقلاتهم من مكان لآخر ، فقد عاش درويش بين (حيفا ، بيروت ، القاهرة ، موسكو ، باريسز....) وكذلك بالنسبة لسميح فيذكر مدينة حيفا فيقول : " ويقول درويش : " لا تتلكأ طويلاً في الشوارع الخلفية ، فأنت على موعد مع الشاطئ ، حيفا حارة في الصيف ورطبة ، ولا تنسَ أن تزور محطة الشرطة وأنت في طريقك إلى البحر"[٤] ، يصف درويش مناخ حيفا من خلال المعطيات عنها إذ علمنا أنها

---

[١] جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، محبوبة محمدي محمد آبادي: ٤٤.

[٢] ينظر : هوية المكان وتحولاته ، قرآءة في رواية طوق الحمام، إيمان جريدان، دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة، ط٢، ٢٠٢١: ٢٣.

[٣] المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي أبو غالي، عالم المعرفة، د . ط، ١٩٩٥: ٨.

[٤] الرسائل: ٣٨.

تقع على البحر ، وهناك الكثير من المدن التي كانت ملتقى الأدباء والشعراء في الغربة من بينهم درويش وسميح ، يقول درويش : " لم أشارك ، منذ مدة ، في أمسيات شعرية ، وحين وصلت الى قاعة النادي الدولي في بروكسل منذ أيام ، همست في اذن صديقي : لا شهية لي ... لا شاعرية فيّ ... فماذا أفعل ؟. ولكن عليّ أن أقرأ ، فقرأت ما ليس معروفاً من شعري ..." [١] ، فكانت بروكسل من بين المدن الكثيرة التي ذكرها الكاتبان فكانت ملتقى الأدباء والشعراء.

يقول سميح :" فغداً نفتتح مهرجان الفن القطري الثاني في أم الفحم التي أصبحت رسمياً مدينة ، ومازالت في الواقع قوية كبيرة ، ولشدة الاهمال الرسمي المتعمد فقد تدفقت في أزقة "المدينة" .. وحوّلتها المياه الآسنة الى فينيسيا على النسق الاسرائيلي ، فينيسيا، انما بلا ألبيوني !"[٢] ، يصف سميح الحال المزري الذي تعيشه مدينة أم الفحم ولكنه وصفها بسخرية وشبهها بفينيسيا الايطالية تهكماً ، وهناك المدن المشتركة التي ألتقى فيها هما الأثنان مثل موسكو ، يقول سميح : " اعتقد أننا سنلتقي في موسكو وسيكون هناك سرب كامل من طيور الأسى ، فهل نستطيع اغراء هذا السرب بإطلاق صيحةٍ ما ، مجرد صيحة ، لأجل إخوتنا المذبوحين من الوريد إلى الوريد ثلاث مراتٍ يومياً قبل الجوع وبعده "[٣] ، كانت موسكو إحدى المحطات التي يلتقي بها بصديقه درويش ، والتي كانت تُقام فيها المهرجانات الشعرية ، فيتساءل سميح هل بإمكانه أن يوصل صوت شعبه المذبوح والذي عانى ولا يزال يعاني من قهر الاحتلال ، ليرد عليه درويش بعد اللقاء في هذه المدينة : " لقد رأيتكُ في موسكو حزيناً منذ أيام ، كما رأيتني مرهقاً ، هل هو تعب المعادن أم الأطلال على ما فينا من غربة لا تتضح إلا في مرآة الاقتراب ؟"[٤] ، فكانت مدينة موسكو مكاناً للقاء الأحبة سميح ودرويش ولكنه لقاء لا يشفي الجروح ، بل على العكس هو يفتح جروح الاغتراب عن البلاد ، وعدم القدرة على فعل شيء لأبناء شعبهم حتى وإن أوصلا معاناتهم شعراً ، ولكن هذا لن يداوي هذا الجرح الكبير فيهم ، ويتحدث درويش عن سفره هو وسميح إلى مدينة صوفيا : " وفي صوفيا تذكر كيف كان أشقاؤنا العرب يخطفوننا سراً ، ويحبوننا سراً خوفاً من عرب آخرين ادانوا بقاءنا هناك في بلادنا ، وطالبونا بأن ننهي التناحر الضاري بين هويتنا وشروط سفرنا بأن

---

[١] الرسائل :١٩٢.

[٢] المصدر نفسه :١١٤.

[٣] المصدر نفسه :١٤٦.

[٤] المصدر نفسه :١٤٩.

نتخلى عن جواز السفر أو عن وثيقة السفر ؟"[١] ، كانت المدن التي يزورها درويش وسميح محطةً للقاء الأحبة والأصدقاء العرب وإقامة المهرجانات الشعرية ، وهناك الكثير من المدن التي ذكرها كل من سميح ودرويش في هذه الرسائل مثل : (بيروت ، حيفا، استوكهولم ، صنعاء، براغ ، فرانكفورت ، فيينا ، لندن ، القاهرة ، دمشق) .

- **الطريق**

يَعُد الطريق أحد الأمكنة المفتوحة المتحركة غير الثابتة لأنّ من يأتي إليه لا يستقر فيه وإنما يمر فيه فقط ، وهو مكان عام مسموح للجميع المرور خلاله ، ويحمل العديد من الدلالات السلبية والايجابية ، ففي بعض الاحيان يولد الخوف والقلق وحالة من الانتظار والترقب لدى الشخصية التي تسير فيه ، وأحياناً أخرى يولد الراحة والطمأنينة إذا كان يؤدي إلى الوجهة التي تريدها الشخصية والتي ستحصل على ما تريد في نهاية هذا الطريق، فيتأثر هذا المكان بالحالة التي تمر بها الشخصية ، يقول سميح : " ولأننا لا نستطيع إلا أن نسافر فقد تداركنا الأمر على نحو لا يخلو من الطرافة بقدر ما فيه من أسى ، لقد هيأ لنا أهلا في المكر عربة تراكتور استلقينا فيها لتقطع بنا طريقاً زراعياً بين الأشجار الواطئة ، وحين هبطنا في ساحة القرية وهلل (الكابتن) فرحاً بانتصاره الشخصي و(القومي) على مكائد الشرطة ، كانت بقايا السماد الطبيعي المنقول سابقاً في عربتنا الضخمة ، عالقاً بقمصاننا"[٢] ، يستذكر سميح ما حصل معه هو ودرويش وراشد حسين في أحد المهرجانات الشعرية عام ١٩٥٨ ، كيف هربوا من شرطة اسرائيل ويصف خلالها طريق الهروب ، فقد كان فيه شيء من المرح والمتعة التي شعرت به الشخصيات لأنّهم حققوا النصر على الشرطة على حد تعبير سميح ولأنّ هذا الطريق أودى بهم إلى جهة أمنة بعيداً عن الشرطة ، ولكن الطريق عند اسماعيل بدر، كان مختلفاً ، يقول درويش في رسالة احصدوهم :" كانت حرب سيناء قد اندلعت منذ دقيقة واحدة فقط ، كان أبوها اسماعيل بدر عائداً من العمل إلى قريته أوقف حرس الحدود عربته إلى جانب الطريق ، هو وثلاثة عمال ، سألهم الجندي : من أين أنتم ؟ قالوا : من كفر قاسم ، تراجع الجندي وصاح : احصدوهم!!! "[٣] ، شعرت هذه الشخصية بالهلع والخوف لهول ما رأت ، فقد سقط العديد من القتلى ، ويقول درويش على لسان أحد الشهود على هذه المجزرة : " ويقول خضر محمود : كنا عائدين من المحجر ، رأينا القتلى والجرحى "[٤] ، فكان هذا الطريق طريق موت بالفعل ، وبقيّ ذلك الطريق يشهد على تلك الجريمة الشنعاء إلى

---

[١] الرسائل :١٢٦

[٢] المصدر نفسه :١٣٠

[٣] المصدر نفسه :١١٩

[٤] المصدر نفسه :١٢٠

يومنا هذا ، اذن على الرغم من انفتاح هذا المكان إلا إنه هنا يجلب الضيق والحسرة لمن شهد ذلك المشهد . وعن طريقٍ آخر يسرد سميح قائلاً : واقول لك يا محمود ، انني لا استطيع ادعاء البطولة ، تذكرتُ زوجتي وأطفالي دفعة واحدة ... تزاحمت في مخيلتي وجوه كثيرة ... أقارب ، أصدقاء، ناس من الناس ، ورأيت جثتي المثقوبة بالرصاص طافية على مياه التيمز الآسنة "[١] ، ولدّ هذا الطريق حالة من القلق والخوف والترقب لدى سميح لأنّه لا يعرف وجهته ، حتى أنّ أفكاره لا إرادياً ذهبت نحو المستقبل وبدأ بتخيل ما سيحصل له في نهاية هذا الطريق المجهول . ولكن درويش كان يغبط محمود على الطريق الذي يمر فيه : " شجرة الخروب اغبطك لأنك تراها كل يوم في طريقك من الرامة إلى حيفا ، ومن حيفا إلى الرامة"[٢] ، فهذا الطريق كان طريق الطفولة التي سُلبت منه والذي حُرم من المرور عبره ، ففيه كان يرى شجرة خروبته التي احبها كثيراً ، لذلك كان يغبط سميح عليه ، فلا يزال هذا المكان محفوراً في ذاكرته .

- **الشارع**

الشارع مكان مفتوح على جهات عدة يوصل الأنسان إلى وجهته التي يريد والشارع هو " صحراء المدينة ، وجزؤها الزمني ، وحياتها الدائبة المتحركة ، ولولب بُعدها الحضاري ، لامتداده طاقة على مد الخيال ، ولا نعطافاته تحولات في الزمان والمكان "[٣] ، والذي عادةً ما يكون صاخباً مليئاً بالناس ، وبرز حضوره كثيراً في النص السردي العربي لأنّه يمثل الجزء الأساس من المدينة ، والتي تشغل بدورها مساحات واسعة في الروايات والقصص ، لذلك نجد له في السرد الرسائلي حضوراً لا بأس به. يقول درويش : "مررتُ ، أمس ، في أحد شوارع تونس لأجد ما يجرحني من جمال : صفين من شجرة لا اعرف اسمه ينشران مناديل شفافة من الليلك الطائر في سماء عابرة وعلى الأرض الرطبة حبات من رذاذ الليلك"[٤] ، أحس درويش بشيء من الابتهاج لرؤية هذا الشارع بهذا المنظر ، والذي يذكره بزهرة الليلك في قريته البروة ولهذا قال لأجد ما يجرحني لأنه حُرِمَ من رؤيتها في قريته . ونرى سميح أيضاً يذكر أحد شوارع فلسطين فيقول :" كنت واقفاً مع الشاعر جورج نجيب خليل فد شارع هنفيئيم " الانبياء " في حيفا ، نسلم ونسأل ونتساءل ، حين انفجرت على مقربة منا مشادة كلامية حامية بين رجل يهودي يحرس "مكتب مطاردة النازيين" القائم في العمارة المجاورة وبين فتى

---

[١] الرسائل :٢٠٨.

[٢] المصدر نفسه :٤٥.

[٣] الرواية والمكان، ياسين النصير: ١١٤.

[٤] الرسائل: ١٩٢.

عربي يبيع التين في أكياس بنية تميل إلى الكاكي..... " [١]، نجد الكاتب الرسائلي يجعل من الشارع ملتقى لجميع الفئات الذين يختلفون في العرق والدين والجنس والعمر، فالشارع لا يقتصر على فئة معينة دون اخرى . حيث سرد سميح قصة كاملة حدثت في الشارع حيثُ مثّل الشارع في هذه القصة مكاناً للصراع بين المستوطن الإسرائيلي والمواطن الفلسطيني. وكذلك اكتسب الشارع أهميته في الرسائل عند اندلاع ثورة الحجارة ، فأصبح الشارع مكاناً للتعبير عن الرأي وعن السخط والغضب ورفض الظلم وفي الحقيقة هو كذلك إلى يومنا هذا ففي كثير من بلداننا العربية تبدأ ثوراتها من الشارع اذن للشارع رمزية كبيرة ، حيث يقول سميح : " في شمس واضحة وضوح الدم الجديد المشرق من بير زيت وغزة او بأصابع معقمة بدخان الإطارات المشتعلة على مصلبات الشوارع ، اكتب إليك مسافراً مقيماً مأخوذاً بنبل الحجارة مسكوناً ببراءة الزجاجات الفارغة ، سلاح الخضر العصري المشهر في وجه الدبابة وناقلة الجنود "[٢] ، ولأجل هذا اكتسب الشارع أهميته لأنّه أصبح رمزاً لبداية اتقاد شعلة الحرية التي بدأت تطالب بها جميع شعوب العالم ، ومع ذلك كان الظلم يزداد ، وما كان من سميح إلا أن يسخر من القدر ، فيذكر : " انني انصرف قليلاً عن تجربتنا نحن الفلسطينيين ، التجربة الساخنة سخونة الدم الطازج ، والتي اثبتت الآن في هذا الوقت ، في هذه اللحظة ، إنّ (النفس البشرية) تستطيع الخروج في تظاهرة من مليون انسان إلى شوارع مدينة ما جراء لعبة كرة القدم ، بينما تنهال شرطة (النفس البشرية) في المدينة ذاتها بالهراوات وبالغاز المسيل للدموع على بضع نساء يتظاهرن احتجاجاً على مذبحة صبرا وشاتيلا "[٣] ، يستغل سميح الشارع ليعبّر من خلاله عن القمع والظلم الذي يتعرض له كل من يريد الحرية وكل من يقول للظالم أنت ظالم ، فهكذا هي حال اغلب البلدان العربية ، فتوزعت دلالة الشارع في الرسائل على ثلاثة أشياء التأمل ، الصراع ، الحرية والثورة وفي الوقت ذاته الظلم .

- **المقهى**

وهو أحد الأماكن المفتوحة التي يرتادها أُناسٌ من عامة الشعب بمختلف الثقافات وفي أحيانٍ كثيرة تكون ملتقى الأصدقاء لتبادل أطراف الحديث لذا فهي تشكّل " بؤرة مكانية اجتماعية ، لها دلالاتها الخاصة في الخطاب الروائي العربي ، الذي وجد فيه علامة من علامات الانفتاح الاجتماعي والثقافي وأنموذج مصغر لعالمنا "[٤] ، يقول درويش : " اليوم...

---

[١] الرسائل :١٠٤.

[٢] المصدر نفسه :١٢٩.

[٣] المصدر نفسه :٩٦.

[٤] العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، فيصل غازي النعيمي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠٠٩ : ١٣٩.

اليوم ، أصبتُ بالكآبة من وحشية ما يكتبه عني بعض "مواطني " مقاهي دمشق، المهاجرين من مقاهي بغداد وبيروت "[١] . يصف المقهى بأنها مكان للثرثرة التي لا طائل منها بين عدد من الذين يترددون عليها فشكّل المقهى عنده طابعاً سلبياً تجاهها ، فالمقهى مكان يحاكي ذات الكاتب أو الذات الاجتماعية ، فهي ليست مكان وعاء واتكاء فقط ، بل مؤثرة وفاعلة فتدل على التجمع الشعبي وما يدور بين الجلساء من أحاديث وأفعال [٢] ، لذا فهي في كثير من الاحيان تكون مصدر للثقافة ، وقرآءة الصحف والمجلات ، يقول درويش : " لا تنسَ أن تسأل الضابط عن موعد الاعتقال القادم ، قدم له سيجارة واطلب منه سجناً أنظف من سجن الشهر الفائت ، ولا تنسِ المقال في (مقهى روما) كالمعتاد ..."[٣] ، حيث يبين هذا النص أن المقهى كان يُقرأ فيه المقالات أيضاً ، ويعد مقهى روما المقهى الوحيد الذي ذكره درويش في الرسائل من خلال تذكره لأماكن كان يرتاد إليها .

٢ - الأليف / المعادي

سنحاول في هذه المساحة أن نتناول ثنائية المكان الأليف والمكان المعادي ، منطلقين من زاوية ثانية ، وقد تتداخل هذه الثنائية بالثنائية التي قبلها ، وليس ذلك بمشكل ، إذ نرومُ هنا التعرف على هذه الأمكنة في إطار العلاقة الواضحة والفاقعة بين الشخصيات ودواخلها وبين المكان وقدرتها على التكّيف أو تحقيق الذات أو الشعور بالانقباض والرغبة في الانعتاق من هذه الأمكنة

أ. المكان الأليف : هو ذلك المكان الذي نألفه ويألفنا فيصبح بالنسية لنا مكاناً أليفاً تعايشنا معه وعشنا فيه ونشعر فيه بالراحة والاطمئنان والخصوصية ، وكذلك هو " كل مكان عشنا فيه وشعرنا فيه بالدفء والحماية بحيث يشكل مادة لذكرياتنا "[٤].

- **البيت:**

هو ذلك المكان المغلق الذي شهد على الكثير من القصص التي تبقى في كثير من الأحيان داخل جدرانها لا تخرج خارج إطارها وهو خير ما يمثل الاستقرار ، الدفء ، الأمان ، الألفة ، وحدة الأسرة ، فقد أعطى غاستون باشلار أهمية كبيرة للبيت وتناول في دراسته كل تفاصليه حيث قال عنه : " هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام

---

[١] الرسائل: ١٠٠.

[٢] ينظر : الرواية والمكان، ياسين النصير: ٢٠ - ٢١.

[٣] الرسائل: ٣٨.

[٤] المكان في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويد محمد ساير الطربولي: ٢٩.

الإنسانية .ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة " [١]، وبالفعل فإنّ البيت يستحق كل هذا الاهتمام فالإنسان يقضي وقت راحته فيه وهو عالمه الخاص بعيداً عن ضجيج العالم الخارجي." والبيت جسد وروح وعالم الإنسان الأول " [٢]. وكلما انتقل الإنسان الى مكان آخر ومهما اندمج فيه تبقى له ذكريات عن بيته الأول ، فهذا سميح القاسم يذكّر درويش بما فعلوه في بيت أبيه القديم فيقول : "هل تذكر كيف استولينا على مضافة أبي العليا وحوّلناها بلا استئذان إلى منتدى ثقافي لثلةٍ من الشبان المدججين بدواوين علي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وأبي القاسم الشابي وكتابات جبران النبوية ؟ " [٣].في هذا المقطع الرسائلي يستذكر سميح أحد اجزاء البيت وهي مضافة أبيه التي جعل منها مكاناً لتجمع بعض الشباب ومكاناً لإطلاق ثقافاتهم الأدبية التي كانت من أولويات الشباب آنذاك فيحن لذلك المكان ولذلك الشباب . وفي نص آخر يستغل سميح المنزل ليسرد أحدى قصص الجوع قائلاً :" هل اذكرك بقصة أخرى من قصص الجوع اللذيذة ؟ حسناً ها أنت ذات مساء تأتي الى منزلي في شارع حيفا ، تلوب قليلاً ولا تستقر على مقعد تمسك كتاباً وتفتح راديو . تغلق النافذة وتفتح الثلاجة ثم تصرخ : (أريد أن آكل .أنا جائع) " [٤]. ويكمل سرد قصته في المنزل ولكن نلاحظ هذه المرة أنّه اعطى اهتماماً وتفاصيلاً اكثر بما هو موجود داخل المنزل فحاول التركيز على بعض الأشياء مثل (الراديو ، الثلاجة) ، ولكن البيت كان مختلفاً عند درويش كما في قوله : " سأبدأ في هذا الخريف بكتابة الكتاب الذي يلاحقني هاجسه منذ أربع سنوات ، كتاب البيوت التي عشتُ فيها ، في الوطن والمنفى ، منذ البيت الأول إلى الآن هو شيء من سيرة البيوت الذاتية ، أكثر من خمسة وعشرين بيتاً ، لا بيت لي ، لا عنوان لي " [٥]. فالبيت عند درويش مكان مهم لذلك قال أنه سيؤلف كتاب يحكي سيرة تنقله بين تلك البيوت التي تنقّلَ فيها بين المنفى والوطن ، فلا عنوان ثابت له لكثرة تنقله . ولكنه لا يريد كل هذه البيوت ، فهو يحن و يحلم ببيت واحد محدد هو مكانه الأول في موطنه: "هل هو مرة أخرى ، بحث عن الماضي عن مكان الماضي باعتباره وطن الحلم "[٦] . فيقول غاستون باشلار : " نظراً لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة ، فإن هذه البيوت تعيش معنا طيلة

---

[١] جماليات المكان، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات، والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ١٩٨٤: ٣٨.

[٢] المصدر نفسه :٣٨.

[٣] الرسائل: ٤٠.

[٤] المصدر نفسه :٦٢.

[٥] المصدر نفسه :١٠٢.

[٦] المصدر نفسه :١٠٢.

الحياة " [١]. فيلازمه الشوق والحنين لذلك البيت الذي عاش فيه طفولته بجميع اجزائه وخاصة ساحته فيذكر : " ولكنني اتذكر ساحة الدار التي تتوسطها شجرة التوت التي تشد البيوت لتحولها الى دار جدي ، تركنا كل شيء على حاله : الحصان ، الخروف ، والثور ، والابواب المفتوحة ، والعشاء الساخن ، وآذان العشاء ، وجهاز الراديو الوحيد لعله ظل مفتوحاً ليذيع اخبار انتصاراتنا الى الآن " [٢] ، فلا يزال كل شيء كما هو في ذاكراته كأنّه لم يغب عنه كل هذه السنين وذلك لشدة تعلقه به إليه ، وبالتأكيد لأنه لم يتركه بمحض إرادته . وكذلك لا بد من ذكر البيت في الغربة الذي كان يسكنه درويش فيصفه لصديقه سميح قائلاً : " انقذني من سطوة هذا الحنين ، أنقذني من يسكنه درويش فيصفه لصديقه سميح قائلاً : " انقذني من سطوة الحنين ، انقذني من شماتة هذا المطار الذي يوصلكم إلى بيوت من حجر ويوصلني إلى بين من هواء ! "[٣]،لأنّه يعد ذلك البيت ليس بيته الحقيقي لأنّه في الغربة بعيداً عن حضن الوطن فلا يشعر فيه بالدفء والأمان والاستقرار ولذلك أطلق عليه بيت من هواء .

- **القرية**

تُعد القرية من الأماكن المفتوحة التي عادةً ما تطل على البساتين والمزارع ، وتتسم الحياة فيها بالبساطة والعفوية ، وعادةً ما يعمل من يسكن القرية بالفلاحة ، وتحمل القرية جانب سلبي وآخر ايجابي ، فالسلبي هو التشبث بعدد من العادات المجحفة وخاصة في ما يخص التعليم ، والجانب الايجابي هو في توحد الأسر التي تسكن فيها ، والهدوء بعيداً عن ضجيج المدن ، ومن القرى التي ذُكرت في الرسائل هي قرية (البروة) يقول سميح مخاطباً درويش :" من الذي أهال على جسدك المرهق خروبة البروة وأشجار فلسطين كلها ؟ أهو المستوطن الفنلندي المصاب بالملل ؟ أم إنها الأغنية الجارحة عن بقايا الوطن الجارح ؟ أنا يا أخي الحبيب ما عدتُ قادراً على حمل زهرة البرقوق البرية ، فلماذا تحملني خروبة البروة ؟ "[٤] ، كان درويش في رسالةٍ سابقة قد استذكر قريته وما حصل لها ، فطلب من سميح أن يراها هي وشجرة الخروب فيها ، فما زالت هذه القرية تشغل فكر درويش وتركت في نفسه شيئاً جميلاً ، لذلك لا زال مولعاً بها وبشجرتها ، كيف لا وهي مكان الميلاد الأول ، وهي أرض الطفولة واللهو واللعب ، ويُكمل سميح قوله عنها " حسناً دعني أُصارحك بأنني منذ فراقنا ، وربما منذ تعارفنا ، وأنا اتهرب من انقاض البروة ، زيتونها ، خروبها ، صبّارها ... وحين أمر

---

[١] جماليات المكان، غاستون باشلار: ٣٧- ٣٨.

[٢] الرسائل: ٤٥.

[٣] المصدر نفسه :٨٢.

[٤] المصدر نفسه :٥١.

بها أحاول اشغال نفسي بأمر ما حتى اتجنب انظر إليها "[١] ، فبعد أن كانت هذه القرية مرتعاً للطفولة والمرح بالنسبة لدرويش ومحاطة بأنواع الشجر ، لم تعد الآن عما كانت عليه ، فأصبحت عبارة عن انقاض لا يريد سميح النظر إليها. وهناك قرية الرامة التي كتب سميح اغلب الرسائل منها بالتوثيق ، فيقول في نهاية رسالة (الصمت الجمهوري) :" أكتب لك من الرامة ، تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ثمة كلب ينبح في طرف القرية الشمالي الشرقي ، لعل شاباً يعود الآن من منزل خطيبته إلى بيته وقد يكون عليه أن يستيقظ في الفجر ليذهب إلى عمله ، إنّه الليل ، ليلنا الجليلي الرائع "[٢] ، أي سكون وأي ألفة يعيشه سميح في قريته الرامة حتى استطاع أن يدخلنا في عالمها ، وجعلنا نتخيل ذلك المكان ، وكأن هذه القرية لم تتأثر بأعمال المحتل التخريبية ، ولم تستطع أيدي الاحتلال أن تعكر صفو ليلها ، فما زالت تبعث روح الأمن والطمأنينة لأهلها .

ب . المكان المعادي

هو المكان الذي " يُراد به كل مكان يثير الإحساس بالعداء والضيق لدى البشر"[٣] ، فالإنسان يحس تجاهه بالقلق والخوف وعدم الراحة والأمان ؛ لذا فالعلاقة بين الإنسان وهذا المكان(المعادي) علاقة متوترة مما يجعله في نهاية المطاف ينفر منه .

- **السجن :**

للسجن تاريخ قديم ، فلقد " عرف الجاهليون السجون في الأمارات القائمة على أطراف الجزيرة العربية (المناذرة والغساسنة)، وفي بعض الحواضر (مكة واليمن) ، أمّا القبائل العربية ، فكانت، بحكم طبيعة حياتها الاجتماعية ، وحلها وترحالها ، تعتمد على الأسر لفترة زمنية محدودة ، إذ لم تكن لديها سجون "[٤]، والسجن مكان ضيق محاط بالجدران تضيّق الخناق على من هم يقيمون داخلها ، وهو منفصل عن العالم الخارجي ، فمن يدخله يغيب عن الجماعة والتجمعات ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم لأكثر من مرة ، قال تعالى : " ربي السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين " [٥]. حيثُ جاءت كلمة السجن في القرآن الكريم بمعنى الحرمان من الحرية . وقد عرّفه

---

[١] الرسائل :٥١.

[٢] المصدر نفسه :٧٧.

[٣] المكان في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويد محمد ساير الطربولي: ٢٩.

[٤] السجون وأثرها في الآداب العربية، من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، واضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٥: ١٥.

[٥] القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية: ٣٣.

ميشيل فوكو بأنه " مشروع تغيير الأفراد أتاح حرمانهم من الحرية تشغيله ضمن الإطار الشرعي " [١] ، وقد أصبح فيما بعد له صفة إصلاحية " [٢] . وللسجن عالم خاص وقانون خاص يفرضه على نزلائه ويلزمهم بإتباع قوانينه وتغيير كل ما اعتادوا عليه قبل السجن ، فعلى السجين أن يعتاد على المكان الجديد الذي قدِم إليه ويودّع ما كان خارجه [٣]. ولكن هل هذا الكلام ينطبق على السجن الذي كان فيه محمود درويش وصديقه سميح ، يقول درويش : " فكانت السجون معاهدنا الأولى التي تعلمنا فيها دروس الحرية. ، واخترنا من تاريخنا ما يشذُ عن قاعدة السلطان .. واخترنا من تاريخ غبرنا ما ينفع اخراج سؤالنا البسيط من العزلة ، ليكون الغصن المقطوع من شجرة الأمة سنديانة الأكثرية الإنسانية"[٤] . السجون هي ذاتها في كل مكان بضيقها وتقيدها للإنسان ، ولكن استطاع درويش من خلال هذ المقطع السردي أن يبين أن السجون بضيقها وانغلاقها لم تزدهم إلا اصراراً وعزيمة وحب للحرية لأنه لم يدخلها بسبب ارتكابه لجرم أو ما شابه فحبسه في السجن كان شرف له لأنه سُجِن من قِبل المحتل ، لأنّه دافع عن حقه ، فكانت السجون المعاهد الأولى التي تعلّموا فيه المطالبة بحقوقهم وبحريتهم ، وحيث أطلق درويش قصائد من داخل السجن وعدّه المنبر الأول للتعبير عن المقاومة " إلى أن صار السجن مكبر الصوت الأول الذي رفع الأذان الصغير إلى الملايين التي عرّفها الهزيمة المقطوعة في الداخل "[٥] . وذكر السجن أيضاً للتعبير عن الحياة المشتركة التي عاشاها هما الأثنان في الماضي " بيد أن قصديتنا المشتركة في الرامة وديرِ الأسد وحيفا وحبنا المشترك وسجننا المشترك ونضالنا المشترك وجريدتنا المشتركة وذاكرتنا المشتركة " [٦] ، فحتى السجن كان يشهد على صداقتهما ، ونضالهما من أجل الحرية . أمّا حال المعتقلين في معتقل(أنصار-٣) فيذكر سميح : " ليس ما يكابده أخوتنا هناك حجراً سياسياً وثقافياً فحسب ، انهم يتعرضون للتعذيب الجسدي الرهيب : من منا دراكولا ؟ ها، قل لي أين يقع دراكولا ؟ وماذا نفعل ازاء هذا الفصل من فصول الجحيم المتعددة

---

[١] المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ميشيل فوكو، تر : علي مقلد، مركز الانماء القومي، د . ط١، بيروت، ١٩٩٠: ٢٣٧.

[٢] المصدر نفسه :٢٣٧.

[٣] ينظر : بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي: ٦١.

[٤] الرسائل: ١١٤.

[٥] المصدر نفسه :١٦٤.

[٦] المصدر نفسه :٤٠.

المسالك ، العديدة الأبواب ، ذات الاتجاه الواحد ؟ "[١] ، إنّ هذا المكان أقل ما يُقال عنه أنّه معادي لكل منا يدخل فيه يولد الاحساس بالظلم والضيق ، ولا وجود للألفة بينه وبين من يُوضع فيه ، لأنّ ما يمارس فيه بحق المُعتقل هو ما يجعله مكاناً خانقاً سالباً للحرية غير مرغوب فيه ، ومن يسمع باسمه يصيبه النفور منه حتى وإن كان تأديبا لبعض الاشخاص .

- **تل أبيب**

ذكر سميح في أحدى رسائله أحد هذه الأمكنة التي لم يألفها أبداً وهي مدينة تل ابيب " لم أبتلع تل أبيب ولم تبتلعني . بيننا نفور مزمن ، وحين تعذرت أية امكانية للتعايش حملت أوراقي وعدتُ الى حيفا "[٢]، على وصفه هذا يظهر أنه بالفعل كانت " تل أبيب " بالنسبة له مكان غير أليف ، ولم يستطع مقاومة العيش فيها، فتل أبيب وأن كانت جزءاً من أرض فلسطين ! ولكنه لا يحس بالانتماء إليها فلا أسمها ولا الذين يعيشون فيها تربطهم علاقة حب وود به ، لهذا تركها وانتقل الى مدينة حيفا ، وفي الحقيقة إنّ أي مواطن عربي ليس الفلسطيني فقط ، حينما يسمع بهذا الاسم يثار غضبه وتشمئز نفسه منها لأنها مدينة سميت وأُقيمت دون أي وجه حق .

---

[١] الرسائل :١٩٩.

[٢] المصدر نفسه :٦٠.

الخاتمة

بعد دراستنا للمكان داخل النص السردي الرسائلي نلاحظ اشتراك بعض الأماكن في الصفة ذاتها ، فمثلاً السجن يكون معادياً ويكون مغلقاً في الوقت ذاته ، وكذلك بالنسبة للبيت فهو مغلق أليف والحال نفسه مع المدن والقرى فقد تكون مفتوحة وفي الوقت ذاته تكون معادية أو أليفة ، والسبب في ذلك هو أن لا شيء ثابت في هذا العالم وكذلك أنّ للزمن دوراً هاماً في تصنيفها فما كان بالأمس معاديا قد يكون اليوم أليفاً وهكذا . ونرى أنّ الكاتبين لم يصفا الأماكن التي مرا بها وصفاً دقيقاً مفصلاً وإنما وصفا بعضاً منها ولكن بجزئيات بسيطة، لأن ديكور المكان لا يعنيهما بقدر ما تعنيهما القيمة المكانية له في قلبهما ، فالمكان عندهما أعمق من أن يكون له وصفاً ديكورياً، فكل مكان ذُكر كانت له ذكرى ودلالة عندهما قد تكون جميلة وأحياناً حزينة ، وعادةً ما نلتمس حنينهما الى المكان في اغلب ذكرياتهم عنه.

ثبت المصادر

- أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، مرشد أحمد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، الإسكندرية، ٢٠٠٣.
- بحوث في الرواية الجديدة، ميشيل بوتور، تر :فريد أنطونيوس، سلسلة كتاب الدوحة، د . ط، قطر، ٢٠١٩.
- بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، مهرجان الأسرة للجميع، مكتبة الأسرة د . ط، مصر، ٢٠٠٤.
- بنية الشكل الروائي ،(الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠.
- بنية النص السردي ، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩١.
- التشكيل السير ذاتي الرسائلي، محمد صابر عبيد، دار نينوى للدراسات والنشر، د . ط، دمشق، ٢٠١٢.
- التشكيل المكاني، ودوره في التكوين الدلالي عند الجواهري، علي عزيز صالح، مجلة كلية التربية الأساسية، ع ٩٩، مجلد ٢٣،٢٠١٧.
- تقنيات السرد الروائي، محتوى الشكل وأنماط الراوي في ثلاثية عبد الرحمن منيف، أرض السواد، خضر محجز.
- جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، مهدي عبيدي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١١.
- جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا، أسماء عبد القادر، رسالة ماجستير، اشراف: ابراهيم السعافين، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، نيسان، ٢٠٠٠.
- جماليات المكان في قصص سعيد حورانيه، محبوبة محمدي محمد آبادي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١١.
- جماليات المكان، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات، والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.
- جماليات المكان، مجموعة مؤلفين، عيون المقالات، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
- الرسائل، محمود درويش وسميح القاسم، دار العودة، د. ط، بيروت،١٩٩٠.
- الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، د . ط، بغداد، ١٩٨٦.
- الريف في الرواية العربية، محمد حسن عبدالله، عالم المعرفة، د . ط، ١٩٨٩.
- السجون وأثرها في الآداب العربية، من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، واضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٥.

- السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان، جبرا ابراهيم جبرا، احسان عباس نموذجاً، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٢.
- صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج، جوادي هنية، اشراف : صالح مفقود، اطروحة الدكتور، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، ٢٠١٣.
- العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، فيصل غازي النعيمي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠٠٩ .
- الفضاء الروائي في أدب جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري، تموز للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ٢٠١٣ .
- فضاء النص الروائي، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، محمد عزام، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، سوريا، ١٩٩٦.
- فن السيرة، احسان عباس، دار صادر، ط١ بيروت، ١٩٩٦.
- لحظة الأبدية ،دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٠.
- لسان العرب، ابن منظور، المجلد الثالث عشر، دار صادر، د.ط، بيروت، د.ت.
- المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي أبو غالي، عالم المعرفة، د . ط، ١٩٩٥.
- المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ميشيل فوكو، تر : علي مقلد، مركز الانماء القومي، ط١، بيروت، ١٩٩٠.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج١، دار الكتاب اللبناني، د. ط، بيروت، ١٩٨٢.
- المكان في السيرة الذاتية، دراسة وعمر منيب أدلبي، جريدة الأسبوع الأدبي، ع ١١٢، ٢٠٠٨ .G – geography . blogspot. com
- المكان في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويد محمد ساير الطربولي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٥.
- المكان في الشعر الأندلسي، من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويد محمد ساير الطربولي.
- نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، حسين مجيد العبيدي، مراجعة وتقديم : عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ط١، بغداد، ١٩٨٧.
- هوية المكان وتحولاته ، قرآءة في رواية طوق الحمام، إيمان جريدان، دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة، ط٢، ٢٠٢١.